**نبذة عن الفلسفات الشرقية**

للأمم والحضارات أعمار كما للأفراد، تبدأ الحضارة فتية غضة متوثبة، ثم يشتد عودها وينتشر وهجها وتترسخ دعائمها، ثم تدب فيها عوامل الضعف فيبدأ منحاها في النزول إلى أن تستسلم لقدرها المحتوم، فتستلم الراية أمم وحضارات غيرها وهكذا دواليك.

وإذا كانت **حضارة** **اليونان** وفلسفتهم هي أهم ما شغل الباحثين المهتمين بتأصيل الفلسفة وجذورها، فإن هناك أمما أخرى من غير اليونانيين كانت لهم مذاهبهم في التفكير الفلسفي.

فبالنسبة إلى **قدماء** **المصريين** كان الاستعداد **للموت** وما بعده شغلهم الشاغل، وعلى الرغم من السمو الخلقي الذي ميز أعمال حكمائهم فإنهم لم يبلوروا مذهبا فلسفيا واضح المعالم، كما أن تفكير المصريين القدماء غلب عليه الطابع **الغيبي والسحري المليء بالطلاسم** فحرم بذلك من المعايير العقلية والمنطقية التي تضبطها.

وعلى الرغم من النتائج اللافتة التي وصل إليها قدماء المصريين في ميدان **الهندسة**، فإنهم لم يضعوا نظريات محددة بل بقيت أفكارهم بهذا الشأن متفرقة لا يجمعها رابط، ولذلك تأجل اكتشاف علمي الهندسة والحساب بنظرياتهما وقوانينهما إلى عصر الحضارة اليونانية.

أما **الفرس** أو الإيرانيون القدماء فكانت عقيدتهم الدينية تقول **بوجود إلهين اثنين**: أهورا مزدا إله الخير وسبب النظام والعدالة والحساب بعد الموت، وأهريمان إله الشر وسبب المرض والموت.

وقد حفلت ديانة الفرس **بطقوس عبادة النار والشجر والنجوم والشياطين**.. وواجب الإنسان في هذه الديانة أن يفعل الخير ويتحرى الصدق ليجنب نفسه سخط إله الشر، ويلاحظ أن التفكير الفارسي القديم ظل يدور في فلك عقائدهم الدينية القائمة على **الثنائية**، وعبادة النار وغيرها من الموجودات، **ولم يتمكنوا من إنتاج تفكير عقلي أو وضع نظرية عميقة**، ولم تؤثر عنهم فلسفة عقلية خالصة.

وإذا انتقلنا إلى **الهنود** وجدنا ملامح نظر فلسفي تضمّنه كتابهم (**الفيدا**) يتجلى هذا النظر في قلق وجودي أمام ظواهر الطبيعة والكائنات، **والسعي نحو مطلق ما غير محدد، عبر قتل سلطان الرغبة** والتعلق بالعالم المحسوس، حتى يتحقق **الخلاص** الذي يقود إلى **السكينة**، بعد **إماتة الرغبات والمطامع وحظوظ النفس**، وهذه الغاية هي التي يسمونها **النيرفانا**.

ولكن هذه الحياة الروحية التي ينشدها حكماء الهند **لا تقيم وزنا للتصورات العقلية**، بل أكبر همّها **التجرّد** عن الرغبة وحظوظ النفس والمحسوسات والإقبال على **التأمّل** **الخالي من كل مضمون** حتى تغيب عن فكر المتأمّل جميع الصور والرسوم... فهو **تأمّل فارغ** من دون محتوى أو موضوع.

الوجود شيء غير معروف عند حكماء الهند، وغاية التأمل عندهم شيء بعيد عن تصورات الإنسان ومداركه، شيء غير محدد ولا تحيط به العقول والأفهام، **والحقيقة عندهم وهم وسراب وخداع**، والكل في صيرورة وتحول دائب لا ينقطع، أما **النفس والخلود فصور لا معنى لها في النحلة الهندية**، ولكن البوذيين وفي تناقض صارخ يعودون فيقرون بالثواب والعقاب في حياة أخرى غير هذه الحياة، حتى إنهم يكفرون من يقول بكون الموت نهاية للإنسان.

ويذهب حكماء الهنود إلى أن **العقل يخلق كل شيء من موضوعات الحلم واليقظة** على السواء، بل كل ما في العالم التجريبي هو حلم كبير، ولا يزيد في القيمة على سائر أحلامنا.

ويمكن القول إن **التفكير عند الهنود ينكر الوجود والواقع** ويسهم بذلك في **تعطيل النظر** الفلسفي، وعلى الرغم مما يبدو في هذا التفكير من عمق فإنه لم **يستطع أن يعبر عن ذاته بصورة معقولة ومذهب متماسك**، فقد غرق في **مذهب وحدة الوجود وأوهام الكشف والذوق** فحطم الإنسان من حيث أراد تأليهه.

أما **الصينيون** فكان نمط التفكير عندهم قريبا **من نمط التفكير عند الهنود**، وقد ورث الصينيون عن أسلافهم البدائيين مزيجا من العقائد التي تقوم على **تقديس السماء وأرواح الأسلاف**.

وفي **القرن** **الخامس قبل الميلاد** ظهر بعض حكمائهم (كونغ تسي وكونفوشيوس وماو تسي) الذين أعادوا صياغة الديانة الصينية وتعاليمها، وينسب إلى ماو تسي إبدال **عبادة الله الواحد بعبادة السماء**.

**ويرتبط التفكير الفلسفي عند الصينيين** بالتصورات الطبيعية القديمة حول نظام الكون كتقلب الليل والنهار وتعاقب الفصول، **والتعارض بين الأشياء في الطبيعة** من نور وظلام وحرارة وبرودة ومذكر ومؤنث، فهذه الحوادث والأشياء يدبر الله أمرها من عليين وتشرف السماء العظمى عليها. فيتحقق النظام الدائم في العالم ويتحقق **الانسجام** **والاستقرار** **والسلام**، وفضيلة الإنسان العظمى هي **الخضوع** **لهذا** **النظام** وتوجيه سلوكه وفقا له، وتحريره من ذاته ليساهم في نظام الكون بالاتحاد به والفناء فيه.

والمتضادات في الكون ليست في صراع أو تناقض **وإنما يكمل أحدها الآخر** ولا يوجد إلا بوجوده، واجتماعهما معا ضروري لتحقيق النظام الكوني، **وسر هذا النظام** لا يمكن الوصول إليه بالبلاغة والمنطق والحجج العقلية، بل بالعلم اللدنّي والكشف الصوفي، لا **ينال** بالعبارة والمقال ولا بالتعلم والاستدلال، ولكن **بالإلهام والذوق والحال**.

وقد نتج عن هذا الاعتقاد إقصاء للعقل والمنطق وما يستتبعانه من قوانين السببية وعدم التناقض، فكونفوشيوس يعطي الأولوية للشعائر والطقوس الدينية ولا يبالي بصور التفكير، بل إنه لا يعير اهتماما بعالم ما بعد الموت وإنما غايته القصوى تنظيم الروابط العائلية والاجتماعية وإرساء مبادئ تكفل الاحترام والانسجام والاتحاد والألفة والمحبة بين أفراد المجتمع.

ويمكن القول إن **الحكمة الصينية ظلت بعيدة عن المنطق والدقة والمعقولية**، ولذلك **لم تستطع أن تسهم بشيء كبير في تراث الفكر العالمي**، إنها لم تتمكن من وضع مذهب في الوجود والحقيقة يرضي العقل ويمكن البناء عليه، بل إنها لم تضمن بقاء الحضارة الصينية إلا بتجميد هذه الحضارة.